الإسلام السياسي بين حماس والقاعدة!

ترجمة / المدى

كان الرئيس بوش و منذ هجمات سبتمبر ٢٠٠١، يقول بان أسامة بن لادن و شبكته الإرهابية، القاعدة، سيفشلون في واحد من أهدافهم الرئيسية: إشعال نزاع دولي واسع بين أمريكا و حلفائها و الإسلام. لقد وصف الرئيس الإسلام بالدين المسالم، يقدم "الأمل و السلوى" لما يزيد على المليار إنسان. وإذا أجرينا تقييما استنادا إلى استطلاعات الرأي، فان العديد من المسلمين في جميع أنحاء العالم لم يتأثروا بذلك. فبالنسبة لهم، إن أعمال أمريكا في الشرق الأوسط تقول لهم قصة مختلفة بشأن موقف الرئيس بوش من عقيدتهم. و قد لا يكون الرئيس مصيبا عندما يقول بان صراعا واسعا للحضارات يمكن تجنبه. و بالنسبة لكل من يطالع العناوين الرئيسة في الأسابيع الأخيرة، يبدو و كأن المؤمنين بوجود معركة وشيكة بين الإسلام و الغرب لديهم الكثير من الأدلة التي تدعم قضيتهم. فإيران- البلد الذي وضعت ثورته في ١٩٧٩ الإسلام السياسي على الخريطة المعاصرة-تسخر من نقادها الغربيين. لقد تعهد رئيسها بتدمير إسرائيل و قامت بتحدي الغرب باستئناف أبحاثها النووية. لا تبدي إيران في حالتها الراهنة إلا القليل من الاهتمام في البحث عن"التقويم" عن طريق معالجة القائمة الطويلة من الشكاوى الغربية، التي تتضمن دعم الإرهاب. و في نفس الوقت، يظهر قادة القاعدة في أشرطة الفيديو لإبلاغ مناصريهم بان الحرب ضد"الصليبيين" و اليهود ما زالت حية تماما. و يحذر السيد بن لادن بان الهجمات المميتة ضد أمريكا ما زالت تحاك. و ظهر نائبه، ايمن الظواهري على الشاشة هذا الأسبوع لكي يعلن انه قد نجا من محاولة أمريكية لاستهداف حياته و بان الله ، و ليس العم سام، هو من يحدد ساعة موته. وفي نفس الوقت، فان حركة إسلامية تعتبرها العديد من الحكومات الغربية إرهابية تستمتع ألان بنصرها المدوي في الانتخابات الفلسطينية. إن نصر حماس قد ادخل البهجة إلى قلوب جميع مريديها من المنظمة المعروفة بالإخوان المسلمين- من مخيمات اللاجئين في الأردن، حيث وزعت الحلوى بحماس عن طريق قادة الأخوان المسلمين المحليين، إلى نظرائهم من الشتات الإسلامي في أوربا. و مهما تفعله حماس الآن، فان نصرها سيتم استذكاره باعتباره اكبر نصر للإسلام السياسي منذ أن ادخل آية الله الخميني في إيران إلى العالم المعاصر فكرة إن الإسلام قد يكون صيغة للحكم، و القانون و لنشر الثورات. ولكل تلك الأسباب، قد يمكن تقديم العذر للمراقبين الأجانب لاعتقادهم بان الإسلام السياسي، في مختلف صيغه العنيفة، هو معادٍ للغرب. في الحقيقة، إن الحركة الإسلامية، برغم أنها قد تبدو من على بعد موحدة، هي في حالة تنافر و اختلاف، و من عدة وجوه تتعمق انقساماتها الداخلية. و لم يبتهج جميع من في العالم الإسلامي بانتصار حماس. فلقد اقلق ما لا يقل عن مجموعتين كحد أدنى. احداهما كانت تشكل مركزا للقوة في البلدان العربية، مثل الأردن و مصر، حيث يشكل الأخوان المسلمون الآن حركة شعبية و هم مستمرون في اكتساب الثقة. و في الانتخابات المصرية الحرة جزئيا التي عقدت في نوفمبر الماضي، كانت نتيجة الأخوان أكثر بكثير مما كان متوقعا؛ و في الأردن، حيث كان الأخوان يعاملون منذ أمد بعيد كمنفذ غير مضر للتنفيس عن المشاعر المعادية لإسرائيل و الغرب، تطالب الحركة بمركز اكبر. و أكثر من اصيب بالفزع بسبب فوز حماس، كما يبدو، هي شبكة القاعدة الإرهابية و المتعاطفون معها. فهم يشعرون الآن بالغضب من حماس لتبنيهم أفكار علمانية ليبرالية بمشاركتهم في انتخابات تعددية، و ان حقيقة نجاح حماس في لعبة الديمقراطية سوف لن تزيد الا من فزعهم. هنا توجد مفارقة. فان الشكلين الأشهر من الإسلام السياسي(بوجه عام: القاعدة و الأخوان المسلمون) يمتلكان أصول إيديولوجية مشتركة. فكلاهما يمتلكان جذورا في المعارضة المناهضة للعلمانية في مصر، وهي قراءة محافظة للإسلام السني والإرث و الحماس الديني للسعوديين. ولكنهما يختلفان على نحو كبير بشأن السياسة و التكتيكات.

حلفاء في التكتيك ، أعداء في المبادئ

ترفض إيديولوجيات القاعدة التقسيم الحالي للعالم إلى الدول المعاصرة المعروفة. فبالنسبة لهم، ان الحدود الوحيدة ذات المعنى هي تلك التي بين الإسلام(التي يعتقدون بانهم ممثلوه الحقيقيون) و الكفار. و في المقابل، ان طريقة تفكير حماس و الإخوان هي براغماتية، تقبل حقيقة الحدود الوطنية. في عقيدتها و نظامها الأخلاقي، فان الإسلام السني، البسيط و المبني على العودة الى الاصول و الذي نشأ منه الأخوان و القاعدة يختلف تماما عن الممارسات الاسلامية النابعة من عالم الشيعة المتطور في ايران، بتراثهم الكهنوتي الواسع. و لكن عندما يتعلق الامر بالمسائل العملية، خصوصا ضد اسرائيل، فان المجموعات الارهابية التي ترعاها ايران تتعاون من دون شك مع نظرائها السنة. فحماس، على سبيل المثال، لديها علاقات عملياتية جيدة مع قوة القدس، الذراع الخارجي للحرس الثوري الايراني. و ان العمليات الانتحارية ضد المدنيين الاسرائيليين، التي تعتبر الان براءة اختراع لحماس، ربما كانت في المقام الاول من ايحاء حزب الله، وهو حزب شيعي مدعوم من ايران و مقره لبنان. و مع ذلك فان الفروقات العقائدية ذات شان. ففي الاسابيع الماضية، كان هنالك تصعيد في الحرب الكلامية بين مساندي القاعدة من جهة و

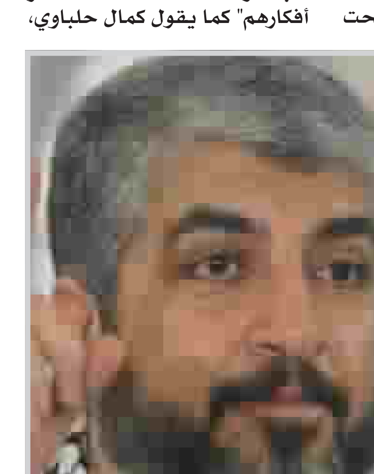

حماس و الاخوان من جهة اخرى. و في كانون، استشهد موقع الكتروني مقره لندن يعكس وجهات نظر الجهاديين- الايمان بالصراع الواسع الذي لا يرحم بين الاسلام و الغرب- بـ (١٠٢) رجل دين، احياء و اموات، ممن يؤيدون وجهة النظر القائلة بان على المسلمين الابرار ان لا يشاركوا في الانتخابات. و بالنسبة لايدولوجيا هذا المعسكر، فان أية ممارسة انتخابية تضع الخيارات الإنسانية و الأنظمة فوق قانون الله. و في كلمات ستيفن اولف، محلل للإسلام في مؤسسة جيمستاون، وهي هيئة استشارية، فان رسالة القاعدة الى حماس هي شيء ما يشبه: "انكم ما زلتم تمارسون اللعبة الغربية- و نحن قادرون على رمي رقعة الشطرنج بعيدا". و الان بما ان حماس تواجه حقيقة السلطة و التحديات اليومية للادارة، فان عليها ان تقرر الى أي مدى من "اللعبة الغربية" مستعدة لان تلعب. فلقد خففت الان بالفعل من حماستها الاسلامية بدخولها في حوارات سياسية مع منافسيها من العلمانيين و الوطنيين الفلسطينيين في حركة فتح، و ربما سرعان ما تتأمل منافع و مخاطر المساومات التكتيكية مع اسرائيل. و جزء من المحنة سيكون ايديولوجيا. فقادة حماس سيحتاجون الى اجازة ثيولوجية من قادة الاخوان الروحيين على الخيارات السياسية التي يتخذونها. و في نفس الوقت، ان لدى الاخوان المسلمين املا كبيرا في نجاح حكومة حماس التي قد تكون نموذجا للاسلام السياسي. و لهذا السبب بالضبط، يتوقع زياد ابو عامر، عضو المجلس الوطني الفلسطيني المقرب من حماس، ان الاخوان المسلمين قد يقدمون في النهاية " الغطاء العقائدي و الدعم السياسي" لكل القرارات التي تتخذها حماس. و لكن ان تضمنت تلك القرارات مساومة مع اسرائيل، فان الجزء العقائدي لن يكون سهلا. فبالرغم من رفضها للعنف في معظم الظروف، تضمنت الخطوط الدنيا للاخوان المسلمين معارضة ايديولوجية عميقة لوجود اسرائيل و مطالبة بسيطرة المسلمين على القدس. اذا علمنا بان هذه النظرة الدينية ستلعب دورا، على الاقل، في تلك المناقشات، فانه من المفيد دراسة الطرق التي تختلف و تلتقي فيها مختلف الحركات الاسلامية. فالقاعدة و الاخوان، على سبيل المثال، يمتلكان كلاهما علاقات ضعيفة مع الحركات الدولية التي تزعم بانها تعمل، غالبا عن طريق وكلاء و رفاق في المبدأ، في بضعة بلدان. و كلاهما ظهرا من الجناح المحافظ للاسلام السني، الذي يؤمن بالتزام النصوص المبكرة كدليل روحي رئيس. وفي مجالات اخرى، فان القاعدة و الاخوان هما ظاهرتان مختلفتان تماما. فالقاعدة هي اولا و اخيرا حركة تتبنى و ترعى اعمال العنف، ليس في الارض الاسلامية فحسب و لكن في أي مكان بامكانها ان تضرب فيه العدو الغربي. و في ايديولوجية الاخوان، بضمنهم حماس، يكون اللجوء الى العنف مبررا في ظروف استثنائية فقط في حالة "الدفاع عن النفس" و "الاحتلال" - وهي الحالات يعتقد بأنها موجودة في اسرائيل، والضفة الغربية و العراق المحتل من قبل الامريكان.

صدمة متجذرة

ان العملية الايديولوجية التي انجبت القاعدة و الاخوان المسلمين تستحق الدراسة. فكلاهما ترعرعا نتيجة الصدمة الاسلامية من تقدم الاستعمار الأوربي في القرن التاسع عشر، وسقوط آخر خلافة عثمانية في عام ١٩٢٣, و جاء من هذه الصدمات، اولا، حركة تسمى السلفية، التي كانت تؤكد على ان النبي نفسه وحده و جيلين من بعده ينبغي ان يعتمدا كقيادة روحية. ان السلفية ليست بالضرورة عنيفة، و لكنها أصبحت كذلك عندما تحالفت مع مجموعة متشددة، متزمتة، و لا تساوم من الاسلام السني، المعروفة باسم الوهابية، التي تمارس من قبل رجال الدين السعوديين. و في هذا المجال كان الخليط المصري- السعودي قد أضاف الخبرة المثيرة، للكثير من الشباب المسلم، للالتحاق بالحرب المسنودة من قبل الامريكان ضد القوات السوفيتية في افغانستان خلال الثمانينات. يجسد رجلا القاعدة الرئيسيان تلك القصة: بن لادن، والظواهري، ان الاخير هو نموذج لتحول إحد أطراف الاخوان المسلمين من الصراع السلمي الى العنف- في البداية ضد الحكومة المصرية و الأنظمة العلمانية العربية الأخرى، و من ثم عن طريق التوسع ضد الغرب. كانت تلك التعليمات قد اخذت طريقا اكثر حدة عن طريق سيد قطب، مفكر مصري اعدم قبل ٤٠ عاما و لكنه لازال يشكل عامل ايحاء بالنسبة الى المسلمين بشجبه اللاذع للملذات الغربية- وكتب هجوما شهيرا ضد الشباب الامريكي و حفلاتهم الراقصة- و انحطاط الأنظمة الاسلامية. و سواء كانت بين ناخبي حماس في احياء غزة الفقيرة او بين مفكري الاخوان، فان أفكار قطب تحظى بنفوذ كبير. يزعم الاخوان بانهم يمتلكون الملايين من الأتباع في جميع أنحاء العالم. و بما انهم غير قادرين على العمل الا في بعض ألاماكن، فان الأرقام تبقى مبهمة. و لكي نستعير تعبيرا من الماركسية، فان الاستراتيجية السياسية للاخوان هي " المساهمة" –فهي تؤمن بالمشاركة في أية عملية ديمقراطية ممكنة، و في الاستفادة من الحرية التي يسمح بها العالم الغربي." هنالك أعضاء في الاخوان المسلمين في العديد من البلدان الغربية، و لكنهم لا يعملون تحت ذلك الاسم- فهم يعملون ضمن مجموعات مختلفة لنشر أفكارهم" كما يقول كمال حلباوي، مصري مقره لندن الذي كان منذ سنوات من بين بضعة أشخاص في الغرب تحدثوا علانية باسم الاخوان. ان سيرة السيد حلباوي الذاتية هي نموذج جيد لتقدم المجموعة. كانت الحركات التي يشرف عليها تمول من قبل السعودية بسخاء. و بعد ان عمل في نيجريا لنشر الثقافة الاسلامية، دعي الى العربية السعودية في عام ١٩٧٢ لتأسيس الجمعية الدولية للشبان المسلمين، و هي واحدة من عدة كيانات قامت بنشر العقيدة بشكل بسيط وصارم. و كرئيس لـ WAMYأمضى بضعة عقود في العربية السعودية. و هنالك قام بتقديم النصح للشباب المسلم من جميع أنحاء العالم.

مبهم ، و لكنه ليس سرا

يبدو ان الاخوان، على الاقل في العالم الغربي، يشكلون نوعاً من البناء الموازي المعروف للمؤرخين المطلعين على Northern Ire-land's Orange Order او الاخوان في جنوب افريقيا، و كلاهما جمعيات كانت البروتستانتية قد لعبت فيهما دورا سريا رابطا. ففي الانضمام الى الاخوان، يطلب من الأعضاء أداء القسم بالالتزام "بالعمل لأجل رسالة الله" و الايمان و الثقة في قادة "الحركة". و يتوقع من عضو الحركة، و بمساعدة رفاقه، نشر عشر قيم ، بضمنها الصحة الجسدية، العقل السليم و الدقة في المواعيد. و في الشتات كحد ادنى، فان ممارسة العمل من خلال الحركات و الجبهات الاخرى صادفت نجاحا بارزا، و أكسبت الاخوان وكلاءهم درجة من النفوذ تفوق بكثير عدد أعضائها. كان اتحاد المسلمين البريطانيين واحدا من منظمتين رئيسيتين ساهمتا في مسيرات"أوقفوا الحرب" التي دفعت بملايين البريطانيين الى الشوارع لمعارضة غزو العراق. لقد اسهم السيد حلباوي في تأسيس MBAعام ١٩٩٧ كحركة قريبة الى، و لكن ليس جزءاً من، الاخوان المسلمين. و في المشهد الفرنسي، ان القوة الكبرى الوحيدة في السياسة الاسلامية هو "اتحاد المنظمات الاسلامية في فرنسا" ، الذي ينكر وجود علاقات رسمية مع الاخوان المسلمين و لكنه من الواضح ان لديه علاقات أيديولوجية و ينظر له بحذر من قبل المسلمين الفرنسيين من القطاعات الاخرى. ان أيمان الحركة بالعمل من خلال الديمقراطية و حرية الكلام، كما يقول السيد حلباوي، ليس خياراً على المدى القصير فقط. فقد اعتبر مؤسسها، حسن البنا النظام البرلماني هو افضل الأنظمة بعد النظام الاسلامي. و هذا لا يعني انه كان يعتقد بان الديمقراطية مثالية. و لكن حتى هذا الايمان بشرعية التعددية الحزبية قد اغضب من هم على شاكلة بن لادن. الهدف المعلن للاخوان هو إعادة بناء المجتمع الاسلامي، و عندها فقط اعادة بناء الدولة. طبقا لهذه الرؤية، فان الرغبة في إدخال الشريعة، كما تم بيانها في القرآن، لا يمكن وضعها موضع تساؤل. و لكن خط الاخوان المسلمين يرى عدم الإسراع في تلك العملية: فالشريعة يمكن ان تهيمن في حالة اقتناع الناس بفضائلها. ان الاخوان هم بالتأكيد مبهمون، ولكنهم ليسوا منظمة سرية. فقائدهم هو رجل مسن مصري، مهدي عاكف، الذي يترأس سلسلة من المجالس التي تتعامل بالتتابع مع مصر، العالم الأرحب و مختلف الأصناف من الاتباع، بضمنها النساء، الشبيبة و مجموعات تخصصية. ان قائدها الروحي من الناحية الفعلية، الشيخ يوسف القرضاوي، ذائع الصيت، بفضل الإذاعات و الإعلانات في الانترنيت التي يتابعها المسلمون في أنحاء العالم. و بالتطابق التام مع تعاليم الاخوان المسلمين، قام بإدانة الهجمات الارهابية في البلدان الغربية و لكنه قدم لها عذرا في اسرائيل وفلسطين و العراق.

امريكا كوسيط

من ملاحظة الصراعات الإيديولوجية بين القاعدة و الاخوان، و الصراعات الفيزيائية بين السنة و الشيعة، قد يسأل بعض الاستراتيجيين الامريكان أنفسهم: بما إنهم جميعا يعارضوننا و يعارضون حلفاءنا، الا ينبغي علينا ان نشعر بالارتياح الى حقيقة كونهم يكرهون احدهم الآخر أيضا؟ في الحقيقة، ان الأمور لا تسير بهذه الطريقة. فمهما كانت درجة فهم المذهب السني او الشيعي قليلة في واشنطن، فان الحقيقة القاسية هي ان الاحتلال الامريكي للعراق قد جعل الامر يبدو، للكثير من الناس في الشرق الأوسط، بان امريكا هي الوسيط الرئيس في توازن القوى بين مختلف مكونات العالم الاسلامي. و لغرض وضعها بصيغة اخرى، فان الناس الذين كانوا في الأساس يميلون الى رؤية كل تطور تقريبا في العالم الاسلامي على انه من عمل امريكا، سيكون من الصعب ثنيهم. و بالرغم من الغيوم المعتمة في علاقة امريكا بايران، فان الكثير من المسلمين السنة على قناعة من ان إدارة بوش تقوم بإفساد قناعاتهم عن طريق محاباة قضية الشيعة في العراق و نشر النفوذ الايراني. في الاحياء الشرقية الفقيرة من عمان، على سبيل المثال، قلما كان الناس يعرفون ما هو الاسلام الشيعي الى الفترة القريبة الماضية. و الان فان الكلام قد انتشر على ان البلد المجاور العراق على وشك ان يشكل- حكومة يهيمن عليها الشيعة- و ، علاوة على ذلك، كانت نتيجة غلطة امريكا. و لا يمكن لأمريكا ان تهرب من هذا العمل المخزي عن طريق إمالة سياستها في العراق بضعة درجات باتجاه السنة. فان أي شيء يبدو في مصلحة السنة يمكن ان يفسر ايضا على انه تودد للمؤسسة السعودية، الملكية او الدينية. و هذا بدوره سينظر له كدعم لجهود السعودية في نشر مختلف أشكال التطرف السني في كافة أرجاء العالم. ان التناقضات بين مختلف مذاهب الاسلام ليست عادية- لا في التعاليم و لا في السلوك الذي تلهمه. ان العالم الغربي بحاجة الى معرفتها، و لو لمجرد معرفة أي من النتائج و التغيرات في السياسة هي محتملة، و أي منها غير محتملة. و لكن الويل كل الويل لكل استراتيجي غربي ممن يعتقد بان مشاكل العالم الاسلامي يمكن معالجتها عن طريق سياسة"فرق تسد". فالنتيجة الأكثر ترجيحا لذلك ستكون بإلقاء اللوم على البلدان الغربية على اعتبارها سبب هذه الانقسامات التي هي موجودة في الأساس، بهذه الصيغة او تلك، منذ نشوء الاسلام.

عن : الايكونومست

الاسلام و السلطة

بقلم : فريد زكريا
ترجمة : فاروق السعد

هل وصلت خطة الرئيس بوش لنشر الديمقراطية الى فشل ذريع؟ الخطة بحاجة الى التغيير لكن جورج بوش ليس ممن يعيد النظر بمواقفه، رغم انه قام بذلك في الفترة الأخيرة. فمنذ ٩/١١ ، جعل بوش من نشر الديمقراطية في الشرق الاوسط المحور الذي تدور حوله سياسته الخارجية، وعمل بعناد على دفع هذه القضية. وفي الأشهر القليلة الماضية، على أية حال، تمخضت هذه الطريقة عن ثمرة غريبة، توجت بنصر حماس في غزة و الضفة الغربية. و قبل ذلك، كنا قد راقبنا بانها أدت الى تدعيم حزب الله في لبنان، الذي هو مثل حماس غالبا ما يوصف في الغرب بانه منظمة إرهابية. و في العراق، أدت تلك السياسة الى صعود أحزاب دينية محافظة الى السلطة بمليشياتها الخاصة. و في مصر، عززت الاخوان المسلمين، و هي واحدة من أقدم المنظمات المتطرفة في العالم العربي، والتي تنحدر منها القاعدة. " تستبدل الديمقراطيات الاستياء بالأمل، و تحترم حقوق مواطنيها و جيرانها، وتسهم في الحرب ضد الإرهاب" كما قال بوش الأسبوع الماضي في خطابه حول حالة الاتحاد. و لكن هل يشكل ذلك حقيقة بالنسبة للأشخاص الذين يقومون بتسلم السلطة هذه الأيام في العالم العربي؟ انه موضوع يستحق تفكيرا جادا، بعيدا جدا عن الإشارة الى موقف بوش الأخرق. ان وصفة بوش، بعد كل ذلك، قد قبلت من قبل العديد من الحكومات: كما ان سياسة الأوربيين تنصب على دفع الإصلاحات الديمقراطية في الشرق الاوسط. و في الحقيقة، ان القليل الذي حدث خلال الأشهر الماضية يطرح مسالة استمرار الدعم للدكتاتوريات الاسلامية. و لكن الأحداث الأخيرة تشير بقوة الى أننا ان لم نفهم بشكل افضل تاريخ وثقافة و سياسة البلدان التي نقوم"بإصلاحها" فإننا مقدمون على مواجهة طريق وعر. فهنالك توترات في العالم الاسلامي بين الرغبة في الديمقراطية و احترام الحرية. (و هي التوترات التي اندلعت في يوم ما في الغرب و ما زالت موجودة بشكل كامن). و هذا واضح جدا في موجة الغضب الدائرة الان حول نشر رسومات الكاريكاتير عن النبي محمد في صحيفة دانمركية صغيرة. لقد كانت الرسومات مسيئة و عملا استفزازيا غير مبرر. و لو ان الصحيفة كانت قد نشرت كاريكاتيرا عنصريا عن أشخاص آخرين او أديان اخرى، فانها ستتعرض ايضا الى إدانة شاملة و ربما الى المقاطعة. و لكن الرسام و المحررين قد لا يكونون في حالة خوف على حياتهم. انه الرد العنيف في بعض الأجزاء من العالم الاسلامي الذي يشير الى رفض أفكار التسامح و حرية التعبير التي تشكل لب المجتمعات الغربية المعاصرة. فلماذا تتصاعد كل هذه التوترات الان؟ كان من المفترض ان يكون التطرف الاسلامي في حالة تضاؤل. فقبل خمسة أعوام كان أفضل كتاب الظاهرة يكتبون كتبا تحمل عناوين ما يشبه" فشل الاسلام السياسي". و كان المراقبون يشيرون الى استنزاف الثورة الايرانية، انحسار الدعم للمجموعات الراديكالية من الجزائر الى مصر و الى العربية السعودية. و مع ذلك يرى المرء الاسلام السياسي في حالة تقدم في جميع أنحاء الشرق الاوسط هذه الأيام. فهل كنا جميعا على خطأ؟ هل حصل التطرف الاسلامي على دماء جديدة؟ هنالك من يقول بان انهيار عملية السلام العربية-الاسرائيلية، والحرب على الارهاب، و سفك الدماء في افغانستان و العراق قد اسهمت جميعها في فكرة ان الاسلام يتعرض الى حصار- و هو ما يقدم ذخيرة حية للمتطرفين. و على اية حال، لا يشكل هذا قضية مقنعة. فمن جهة، ليست المعارضة للحرب على العراق ظاهرة راديكالية في الشرق الاوسط، بل انها تمثل الاتجاه العام بصورته التامة. فجميع الحكومات تقريبا وقفت على الضد منها. و اضافة الى ذلك، فان صعود و هبوط التطرف الاسلامي كانت يمثل ظاهرة واسعة و عميقة، ولدت خلال عقود. و قلما يمكن لها ان تعيد نفسها استنادا الى أخبار سنة واحدة. فهل يصدق احد انه لو لم تكن هنالك حرب العراق، فان حماس قد تخسر؟ او ان الرسوم الدانمركية قد تنشر بدون ردة فعل؟ ان حركة الاسلام السياسي قد تغيرت خلال الخمسة عشر عاماً الماضية. فخلال القسم الاكبر من الثمانينات و التسعينيات، كانت للمتطرفين الإسلاميين أهداف ثورية. فقد كانوا يحاولون استخدام العنف للإطاحة بالنظم الحليفة للغرب و إحلالها بدول اسلامية. ان تلك الرغبة في اقامة الدول الاسلامية و ليس الدول الديمقراطية على النمط الغربي كان في لب الرسالة التي يطرحونها. و بما انهم كانوا غالبا ما يبدلون من اهدافهم، فقد تحدثوا بمصطلحات عالمية. و لكن تبين ان جاذبية تلك الأيديولوجية كانت محدودة. فالناس في الجزائر، ومصر، والعربية السعودية ومناطق اخرى لا تحصى قد رفضتها؛ في الحقيقة، انهم قد قبلوا على مضض الديكتاتوريات التي يعيشون تحت ظلها بدلا من ان يساندوا عنف التطرف. في هذا الإحساس، واجه الاسلام السياسي الفشل. و لكن بمرور الوقت، ادرك الكثير من الاسلاميين تلك الحقيقة و بدأوا بتغيير برنامجهم. فقد ادركوا بانه عن طريق نبذ الثورات العنيفة و الفوضى الاجتماعية يمكن لأفكارهم حقا ان تكسب دعما شعبيا قويا. لذلك فقد اعادوا تقديم انفسهم، مشددين ليس على التغيير الثوري بل السلمي، و ليس الأيديولوجية الدولية بل على الاصلاح الوطني. و هم ما زالوا يحتجون على الحكام المستبدين، و لكنهم الان يقومون بتنظيم المسيرات لمصلحة السياسة الديمقراطية النزيهة. كانت هنالك عناصر متطرفة، بالطبع، ما زالت تؤمن بالخلافة، و انفصلت لتشكل مجموعات مثل القاعدة.(ما زال بعض من هذا التطرف داخل شتات المجتمعات الاوربية اكثر قوة من الشرق الاوسط ذاته). و لكن من الواضح بان الاخوان المسلمين وقبل ٩/١١ بفترة بعيدة قد دانوا الارهاب الموجه ضد نظام مبارك، كما نأوا بأنفسهم حتى عن تكتيكات التمرد العراقي. و حاولت بدلا من ذلك ان تحصل على الدعم لبرنامجها الاجتماعي و السياسي في مصر. ومن جانبها، لم تقرر حماس في الانتخابات فحسب- للمرة الاولى- و لكنها قامت بحملتها الانتخابية مستندة بشكل تام تقريبا على مكافحة الفساد، وتوفير الخدمات الاجتماعية و التاكيد على القومية. و لم تدن سوى القاعدة و امثالها أية مشاركة في الانتخابات، سواء من قبل المجوعات الاسلامية العراقية او حماس. و على اية حال، ياتي ذلك انسجاما مع الديمقراطية، ان لم يتم النظر اليه على انه ينسجم مع القيم الغربية مثل الليبرالية، والتسامح و الحرية. ان البرنامج الذي تتبناه معظم تلك الاحزاب متعصب بعمق، يتضمن ما هو مناهض لحقوق المراة، المواطنة من الدرجة الثانية للاقليات و المواجهة مع الغرب و اسرائيل. ان النموذج الاكثر اثارة لهذه الميول هو في جنوب العراق، حيث تحكم الاحزاب الشيعية الدينية بدون أي ضوابط. و هنالك وفرة من التقارير تشير الى ان الموظفين و الأساتذة يتعرضون لاختبارات دينية و سياسية، و النساء يتعرضن لتقييدات لم يتم فرضها من قبل ابدا في العراق، و ان جميع أشكال التسلية البريئة قد حرمت من قبل المسؤولين. و عند الدخول الى مكتب رئيس الوزراء، ابراهيم الجعفري، يلاحظ المرء الان نساء متشحات بالحجاب و القفازات، و مستوى من التعصب قلما يرى له نظيراً في العالم الاسلامي. لقد اكتسبت بعض تلك القوى قوة بسبب غياب البدائل الاخرى. فمنذ عقود كان الشرق الاوسط مجدبا سياسيا. ففي العراق، كان السبب وراء عدم وجود احزاب ليبرالية موازية هو ان صدام حسين قام بتدميرها. لكنه لم يتمكن تماما من تدمير المجموعات المستندة الى الجامع، وفي نهاية حكمه، قام في الحقيقة باستخدامها لتأكيد شرعيته ذاتها. و في معظم اجزاء العالم الاسلامي اصبح الاسلام لغة المعارضة السياسية لانها كانت اللغة الوحيدة التي لا يمكن مراقبتها. وهذا النمط، لمستبدين يستخدمون الاحزاب الدينية لتدمير المعارضة العلمانية، قد استغل عمليا في جميع البلدان العربية، و غالبا ما تعداها. و قد كانت تلك هي الطريقة التي حافظ من خلالها الجنرال ضياء الحق في باكستان على دكتاتوريته في الثمانينات، خالقا حركة متطرفة قوية لم تشهدها البلاد من قبل. ان السبب الأهم وراء صعود الاسلام السياسي هو فشل السياسة العلمانية. فالعلمانية جربت في الشرق الاوسط. وكانت مجسدة في صدام حسين و معمر القذافي و حسني مبارك و ياسر عرفات. يعتقد العرب بانهم جربوا الساسة على النمط الغربي و جلبت لهم الطغيان و الركود. و هم يعتقدون بانهم حصلوا على نسخة هجينة من الغرب و قد لا يكون الغرب النموذج الصحيح بالنسبة اليهم على اية حال. يلعب التطرف الاسلامي بعمق على تلك المشاعر. فهو يثير الاصالة، والفخر، والخصوصية الثقافية والتمرد. كانت تلك الأفكار تشكل مصادر قوية للهوية الوطنية خلال التاريخ و بقيت كذلك، خصوصا في عصر عولمة الاقتصاد و الهيمنة الامريكية. و في وجه الضعف، والتغريب و الارباك التي ينتجها العالم المعاصر، تقول تلك المجموعات ببساطة" الاسلام هو الحل". ومن المحتمل ان نطرح على أنفسنا سؤالا ما العمل حول تلك الحركات التي ترتقي سدة الحكم. ان المهمة الاولى هي بالتاكيد في فهمها- الفهم بانها تزدهر اعتمادا على الفخر و البحث عن الاصالة. ان هذه القوى تتصرف بطرق معقدة. من الواضح الان بان الولايات المتحدة- و الأوربيين ايضا- لا يفهمون بلدانا مثل العراق و ايران جيدا. ففي العراق، قلبت الولايات المتحدة التركيبات الاجتماعية و أنماط الحكم و لم يكن لديها الا القليل من الأفكار حول كيفية استبدالها. لقد كنا نعتقد بان الديمقراطية و الحرية بامكانهما حل مشاكل الفوضى، الشقاق و الاختلال الوظيفي. او لناخذ حالة ايران. لقد اصبح الكثير من الامريكان مقتنعين بان غالبية الايرانيين كانوا يكرهون نظامهم و كانوا يحاولون الاطاحة به؛ و كل ما كنا بحاجه اليه هو مساعدتهم في تحقيق ثورة. ليس هنالك الا قليل من الشك من ان النظام وحشي و غير شعبي. و لكن يبدو ايضا انها تمتلك بعض اسس الدعم، في الجوامع، و انظمة الرعاية و الاقسام الفقيرة من البلاد. وان اولئك الذين لا يساندون النظام هم ليسوا ليبراليين غربيين بشكل تلقائي. وبعد كل ذلك، كانت هنالك انتخابات في ايران و، رغم المشاركة المنخفضة، كان التصويت في التحليل الأخير حرا و سريا.(بالعودة الى الفترة التي كان فيها الفائز في الانتخابات الايرانية ليبرالي، محمد خاتمي، كان الناس دوما يستشهدون بالتصويت كدليل على ان المتطرفين يصادفون الفشل). اشترك خمسة مرشحين في آخر انتخابات. فجاء المرشح المؤيد لليبرالية الغربية خامسا؛ و جاء المرشح المحافظ المعادي للغرب في المرتبة الاولى. ان تخميني الخاص، و هو مجرد تخمين، هو ان بعض الايرانيين- ليسوا الأغلبية، و لكنهم ليسوا أقلية صغيرة، تقبل النظام الحالي. يعود ذلك جزئيا الى سياسته الأيديولوجية و سياستها في الدعم، و جزئيا بسبب وجود قصور ذاتي عام.(ليس علينا الا النظر الى العراق لملاحظة ان الشخصيات الدينية تمتلك نوعاً من التأثير على السكان). أضف الى ذلك أجهزة القمع وسعر النفط البالغ ٦٠ $لبرميل النفط وان امامك نظاماً لديه عدة طرق للبقاء في السلطة. ان الرئيس احمدي نجاد يفهم تلك القوى. فهو يؤكد في ظهوره اليومي في التلفزيون ليس على العقيدة الاسلامية بل التخفيف عن الفقراء، ودعم المواد، والمشروعات المضادة للفساد وفوق كل شيء، الوطنية على صيغة البرنامج النووي. قد يكون احمدي نجاد متدينا، و لكن معظم اعماله هي شعبية، باستخدام القوى التي ستلعب دورا في ابقائه في السلطة. ان الانتخابات لم تخلق الاسلام السياسي في الشرق الاوسط. بل هي عبرت عن حقيقة موجودة في كل الاحوال. كانت حماس اللاعب الاكبر الذي ينبغي ان يحسب له حساب في غزة. و الاخوان المسلمون يحظون بشعبية في مصر، سواء قام حسني مبارك باجراء انتخابات حقيقية أم لا. في الحقيقة، كلما تعرضوا الى القمع، كلما ازدادوا جاذبية. وان كانت السياسة اكثر انفتاحا، فان تلك الاحزاب قد تقوم او لا تقوم بتحديث نفسها، و لكنها بالتاكيد ستفقد بعضاً من الاغراء الروحاني الذي تتمتع به الان. و الشهداء سيصبحون رؤساء بلديات، و هو ما يعتبر سقوط في المكانة. و لكن قبول تلك القوى لا يعني الاحتفاء بها. فمن المهم هو عدم اعتبار عدم التسامح الديني و المواقف المناهضة للتحديث اختلافات ثقافية يجب احترامها. و سواء كان عدم تسامح هندوسي في الهند، ومناهضة السامية في اوربا او تعصب اسلامي في العربية السعودية، فان العالم المعاصر يدينها بحق جميعا على اعتبارها خرقا للقيم العالمية. بينت الأشهر القليلة الماضية ان نشر الديمقراطية و نشر الحرية في الشرق الاوسط هما مشروعان منفصلان. فكلاهما يحتلان مكانيهما. و لكن الأخيرة- نشر قوى الحرية السياسية، الاقتصادية و الاجتماعي- هي مهمة اكثر صعوبة و اكثر أهمية. وان لم ننجح في هذا المجال، فإننا سنحصل على سلسلة من النتائج الديمقراطية المقرفة، كما هو الحال معنا في العديد من تلك المناطق. في هذه المعركة لن يربح المتطرفون. فقوى الليبرالية في الشرق الاوسط تتعرض للإعاقة منذ عقود. و هي بحاجة الى مساعدة. لنتذكر ذلك في اوربا لأكثر من ١٠٠ عام مضت، عندما لم يكن يقدم للديمقراطيين الليبراليين مساعدة، كان القوميون و الشيوعيون غالبا ما ينتصرون في العمليات الديمقراطية. و قبل كل شيء، ان قوى الاعتدال تزدهر في جو النجاح. فالمجتمعان اللذان يوجد فيهما القليل من التطرف هما تركيا و ماليزيا كلتاهما تشهدان انفتاحا سياسيا و يزدهران من الناحية الاقتصادية. و قارن ذلك بباكستان هذه الأيام- التي تنمو بنسبة ٨٪ في العام مع بلد الجنرال ضياء الحق، و يمكنك ان ترى لماذا، مع كل الضجة، يكون التطرف هناك في حالة اضمحلال. ان كنت مرتاحا مع العالم المعاصر، فان هنالك احتمالاً قليلاً بانك تريد ان تقوم بنسفه. و هنالك طرق جيدة و سيئة للتعامل مع التطرف الاسلامي. ينبغي علينا عدم تغذية الهياج الذي يكسبهم أتباعا. لقد كانت غطرسة الإدارة الامريكية نعمة كبيرة لأكثر الاحزاب شرا في الشرق الاوسط، التي ينظر اليها على انها الوحيدة القادرة على مواجهة الطغيان الإمبريالي. علينا ان نميز مدى الاختلافات بين تلك المجموعات: على سبيل المثال، عندما اضاف بوش وحشية الشيشان الى قائمته حول الجرائم المتعلقة بـ" التطرف الاسلامي" قام بارتكاب خطأ. فقد شنت روسيا حربا مروعة ضد الشيشان لمدة عقدين، مؤدية بحياة اكثر من ١٠٠٠٠٠ مدني. و للتحدث عن تلك الحرب بذات النفس الذي نتحدث فيه عن تفجيرات لندن، كما فعل بوش، معناه الإشارة الى انه كلما ارتكب مسلم القتل، بغض النظر عن الاستفزاز، فهو يعني ذات الشيء بالنسبة له. لنعط بوش حقه. فقد قال بسداد و قوة بان الدعم الأعمى للدكتاتوريات في الشرق الاوسط قد كان سياسة أسفرت عن القمع و عدم الاستقرار. و لكنه لم يعثر بعد على طريقة يقوم فيها بصدق بنشر الإصلاحات السياسية، الاقتصادية و الاجتماعية في المنطقة. و القسم الاكبر من المشكلة يتمثل في ان الولايات المتحدة- و الغرب عموما- لا ينظر اليهم على انهم خيرون بحق و حلفاء لشعوب تلك البلدان في طموحها من اجل حياة افضل. لقد أوقفنا شراكتنا مع النظم القمعية في الشرق الاوسط، و لكننا لم ننجح بعد في صياغة شراكة حقيقية مع مجتمعات الشرق الاوسط.

عن : نيوزويك